

جولة بين أطلال بومبي

للأديب حسين شوقي

كانت بومبي المدينة التي يقصدها سراً روما وعظاؤها للمتعة والهو ، لما توافر فيها من أسباب ذلك ، كما يقصد اليوم المترفون من الغربيين ساحل الرئييرا الساحر . . .

وقد يرى المتجول بين أطلال بومبي آثار الطريق التي كانت تصل روما — حاضرة الدولة الرومانية العظيمة — ببومبي . . . وبومبي اليوم تبعد كيلو مترات قليلة عن البحر ، أما في زمانها الغابر فقد كانت تشرف على البحر ، كما كانت ترسى في مينائها يخوت أقيال الرومان الأنيقة .

وبومبي التي لم يزد عدد سكانها على خمسة وعشرين ألف نسمة ، كان فيها من المسارح والحانات والحمامات العامة وأما كن المصارعة ما يجذب النفس ويستهوى الفؤاد . . .

وكل ذلك باق أكثره على رغم الزلازلين الكبيرين اللذين منيت بهما بومبي من عشرين قرناً خلت . . .

وما أجمل الدور التي شيدها سراً روما في بومبي ليخلوا إليها في أوقات فراغهم للهو واللعب ، وقد حليت أرضها وسماؤها بالفسيفساء الملون الرائع ، وبالصور الزيتية الجميلة ، المنقولة عن الأساطير ، وقد شيد أكثر هذه الدور على طراز خليط من الطرازين الروماني والأغريقي . . . لأن الرومان أعجبوا بالحضارة اليونانية ، فنقلوا منها إلى بلادهم فنونها ، وآدابها ، وديانها . . . وقد بلغ إعجاب القيصر نيرون بالأغريق أنه تعلم لغتهم فأتقنها ، وكان يشجيه أن يغني بها ، وقد وهب صوتاً رخيماً . . .

وقد شيدت هذه الدور على النظام الآتي : باب ضخيم على الشارع ، يليج منه الزائر إلى دهليز ضيق يوصل إلى فناء فسيح ليس له سقف ، سوى سماء نابولي الصافية الزرقاء ، وقد زين هذا الفناء بالأزهار النادرة ، كما حلى بالتماثيل المرمية الجميلة التي تمثل الآلهة ، وبعض هذه التماثيل لا يزال قائماً في مكانه وبعضه هدمته الزلازل ، والبعض الآخر نقل إلى متحف نابولي . . .

وفي وسط هذا الفناء تقوم نافورة من المرمر ، يتفجر منها الماء عذباً سلسالاً . . .

وحول جنبات هذا الفناء بنيت حجر الدار ، وقد بلغت عناية القوم بأولادهم أنهم أنشأوا لهم حجراً خاصة زينوا جدرانها بالصور الزيتية الفكاهية التي تلائم مزاج الأطفال . . .

كما أن بومبي كانت لها معابد فخمة صدعتها الزلازل فأودت بمعظم عمدانها الكورنتية الأنيقة . . . وقد شيدها القوم زلفى للآلهة حتى يغمضوا أعينهم عما يقترفونه من كبار الآثام الخلقية بين جدران هذه المدينة المتهتكة . . .

كذلك الآلهة المصرية إيزيس ، التي ذاع صيتها في العالم القديم وعظم شأنها ، لها معبد خاص في بومبي ، وقد عبدها الرومان في صورة سيدة رومانية !

وقد شاهدت تماثيلها في متحف نابولي . . .

وهناك حي للمتبدلات كن يقبلن من أهل المرح وعودهم بأن يدفعوا شيئاً . . . وشاهدت في إحدى الحجرات اسماً منقوشاً على الحائط يتعهد صاحبه بأن يدفع الأتاوة في الزيارة المقبلة !

وشوارع بومبي مرصوفة مرصعة بالحجر ، وقد وضعوا في مفترقاتها أحجاراً بعلو الأرصفة ، ليعبر عليها المارة من الشعب في الأيام الممطرة ، أما المترفون فكانوا يسرون في عربات محمولة على أكتاف عبيدهم . . .

ولكن يلوح لي أن أهالي بومبي قد بالغوا في الاستهتار واقتراف الرذائل ، حتى أغضبوا الآلهة عليهم برغم ماشيدهم لهم « رشوة » من معابد ، فسلطوا على المدينة جارها الرهيب بركان فيزوف فزلزل أرجاءها ، وأخذ يرميها بشواظ من النار السائلة والدخان الكبيرتي الخانق ، حتى تصدعت قصورها ودورها ، وهلك معظم أهلها ، وقد رأيت على عتبة إحدى تلك الدور أسرة قد أدركتها القارعة وهي على أهبة الفرار فتحجرت جثتها ، وكانوا في فرارهم يحملون حليهم ، ففنوا وبقيت هذه الحلى إلى اليوم معروضة في متحف نابولي ، شاهدة على حرص الإنسان حتى وهو ملاق حتفه !

أي بومبي ! أيتها المدينة الساحرة كنت هوة الأخلاق وبؤرة الرذيلة ، فضربتك الآلهة ، فأصبحت اليوم مثلاً خالداً على الدهر

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

باحثين كل منا بقدر علمه ، وُعِينَا جميعاً بالتحقق من خلو الحقل من الآفات . ثم من النبات الغريب ، وتدرجنا الى حالة الزرع ودرجة العناية به . ثم الى البذرة وانتقائها ، والناظر في كل ذلك فخور بنتائج اشرافه ، ينتظر الحكم في ثقة وثبات .

ظننا حين هنأناه بحسن عمله ، أننا فرغنا وليس لنا إلا أن نعود أدراجنا ! ! واذا بالناظر يغير السير ، ويتجه الى أقصى الجهة الشرقية في خطوات متتدة ، وفي معان من التوسل للاقتداء به . ثم نظر نظرة هادئة الى أسفل ، أعقبها بأخرى أبعد مدى الى الغرب ، وقال يخاطب المفتش : « أرجو أن تنظر لترى النبات في خطوط لا تشكو عوجاً ؟ ثم انظر في أى ناحية ، ألا تجد النبات في مستوى واحد في الارتفاع ؟

أليس هذا الحقل قصيدة إذن ؟ أليست خطوط القطن مفصلاً بينها (بالمساق) المقاطعة لها — أحياناً من الشعر من صدر وعجز ؟

ثم أليس في نعمة الناظر على سذاجتها شاعرية ؟ أى والله ! ولقد روحت عنى هذه الملاحظة كثيراً من العناء ، وسرى في جسمي ما يسرى عندما أخرج من عملي مكدود الذهن ، كليلاً الخاطر ، فأقرأ قصيدة للمتنبي أو مقطوعة لشوقي بك رحمهما الله !

على أنى بين مشاغل المادة من مرور وخص وارشاد ، وبين متعة الأدب الذي خبرت فذكرت ، لم أزل بين القطن ، ولم أعد الحقل وفيه ريان ، وذكر قول شوقي بك في (باريس) :

إن كنت للشهوات رياءً فالعلي شهواتهن مَرويات فيك

ولطالما عثر القطن وعزم معه زارعوه ، فلم تكن تسمع بيننا إلا تنويهاً بذكره ، وتديلاً لاسمه ، ففاز من أدب الزراعة بأقشب الأثواب ، وأجذب الأسماء والاشارات ، فدعى « بذى العين البيضاء » وسمى « أبا الذهب »

حتى اذا دهمت الأزمة ، وحلت الكارثة ، في سنة ١٩٣١ بتدهور أسعاره ، لم ييخل عليه أدب الزراعة « بذى القلب الأسود » فاذا تساءلت دَهْشاً أو أنكرت عدم الوفاء لمن سبقت على الفلاح نعمه ! ! قيل لك : أوليس بذوره سوداء حقاً ؟ أوليست تقع من « اللوزة » في الصميم ؟

أدب الزراعة

للأستاذ محمد محمود جلال

مازلنا نحس حنيناً الى الأدب ، ولو أقصتنا ظروف الحياة عن بيئاته ومجامعه ، ويهفو بألبابنا شوق ملح الى كتبه ورسائله برغم الفارق الظاهر ، والحجاب الذى تكاد تسدله شواغل الحياة في الزراعة والمال والاقتصاد . فنتلمس في أجوائنا جهد الطاقة نسيمه المنعش ، وهو للروح حاجة كحاجة الزرع للماء .

والأدب في عرفي روح كل كيان ، ولا ينقبض بفضلته عن أى عمل أو مهنة ، وانما يتلون ويختلف باختلاف الأعمال والبيئات . وهو عنوان الحياة والذوق — فلا يعرض نفسه إلا لراغب الاجتلاء . وعندى أنه بشيء من التفهم ، وحسن النظر يجده المرء مثلاً . ويجد غذاءه دافقاً بغير من .

وما هي ذى رحمة الله تقرب البعيد ، وتعوض من طرف ما يخال ضناً من طرف آخر . فتبسط لنا يده جل شأنه — فيما تبسط — من صحيفة الحقل قصائد عامرة الأبيات ، شجية النغمات . وفي أمثال إخواننا الفلاحين وإشاراتهم واستعاراتهم قطع من المتثور المليء بالمعاني الدقيقة القيمة ، ولكن بالأسلوب الذى يتفق والنشأة ، ويتسق مع البيئة .

رافقت مرة أحد مفتشى الجمعية الزراعية متعهداً حقلاً للقطن من الزراعة الخاصة ، سائرين خلف ناظر الزراعة ، نطوف

جزاء فجورك ، وما انبث في كل شق من شقوقك من دعارة وفساد . . .

أى بومبى ! أيتها المدينة الفاتنة ، لقد كان ماحل بك من عقاب عدلاً ، حتى لتجزع الطير من أن تحوم بين أسوارك رهبة وذعراً ، على رغم مضي عشرين قرناً على نكبتك !

أى بومبى ! أيتها المدينة الخالدة ! لا تجزعى على ما أصابك فالدنيا دول ، فكم من مدن كانت أعظم منك شأنًا ، وأرفع بنياناً اندثرت كأن لم تكن ، حتى أن بعضها تلاشى فلا يعرف الآن مكانه . . .

مسين شرقى